الفقه الحنفي بإفريقية في القرن 3هـ/ 9م: رواية أسد بن الفرات لكتاب الأصل عن محمد بن الحسن الشيباني لنجم الدين الهنتاتي

مراجعة: محمد الريوش*

doi:10.17879/mjiphs-2024-5791

الهنتاتي، نجم الدين (دراسة وتحقيق). **الفقه الحنفي بإفريقية في القرن 3هـ/9م: رواية أسد بن الفرات لكتاب الأصل عن محمد بن الحسن الشيباني. ثلاث مخطوطات من المكتبة العتيقة برقّادة – القيروان منسوبة إلى الأسدية: كتاب الصلاة – كتاب العتق والتدبير – كتاب السرقة وقطع الطريق**. تحقيق. لايدن: بريل، 2023. 244 صفحة. ISBN: 978-90-04-54663-9. e-ISBN: 978-90-04-54664-6.

يعيد نجم الدين الهنتاتي[1] في كتابه الأخير تركيب أحجية لفترة من أهم الفترات التاريخية في تشكل المذهب المالكي في شمال إفريقية، وعلى وجه التحديد بالقيروان؛ حيث عرفت المرحلة حكم دولة بني الأغلب، التي كانت معها سيادة المذهبين المالكي والحنفي؛ عرفت أحيانًا تعايشًا ووصلت في أوقات أخرى إلى درجة الصراع الحقيقي. إن إخراج مخطوطات تعود لهذه الفترة تعد كافية لتعطينا فكرة عن أهمية الجهد الذي بذله أسد بن الفرات (142/ 759 - 213/ 828) في نقل المذهبين، المالكي والحنفي، ومدى عنايته بأهم كتب المذهب الحنفي وهو **الأصل** لمحمد بن الحسن الشيباني (131/748 – 189/ 804) أو ما يعرف بـ**المبسوط**، وهو أحد كتب ظاهر الرواية وأهم وأدق الكتب التي حوت أمات مسائل الفقه الحنفي، والذي عليه مدار الشراح والدارسين. غير أن العنوان بوصفه عتبة للكتاب يحتوي على بعض من الغموض لا يفك إلا بإضافة تقييدات أضافها الكاتب بعبارته على الغلاف: "ثلاث مخطوطات من المكتبة العتيقة برقادة – القيروان منسوبة إلى الأسدية: كتاب الصلاة – كتاب العتق والتدبير – كتاب السرقة وقطع الطريق". ولعل القارئ يشعر بصعوبة تخطي العتبات في الكتاب من عنوان طويل بمثابة دعوى عريضة وهي "الفقه الحنفي في القرن الثالث رواية أسد بن الفرات..." وكأننا بصدد مدونة شاملة للفقه الحنفي،

* محمد الريوش، أستاذ زائر بكلية العلوم القانونية والاجتماعية والاقتصادية أكدال بجامعة محمد الخامس بالرباط، حاصل على دكتوراه من جامعة القرويين بالرباط، المملكة المغربية. مهتم بالفقه وأصوله ومقاصد الشريعة وتاريخهما في العصر المبكر والوسيط. eriouiche@gmail.com

[1] نجم الدين الهنتاتي، حاصل على الدكتوراه (1992)، والتّأهيل الجامعي (2001)، من كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية بتونس. وهو أستاذ التاريخ الوسيط، بجامعة الزيتونة. نُشرت له عدة أعمال، آخرها ترجمة إلى العربية لكتاب سعد غراب بعنوان **ابن عرفة والمذهب المالكي بإفريقية في القرن 8 هـ/ 14م** (2022).

فكان لا بد من تقييده بعنوان فرعي "ثلاث مخطوطات..." وقد كان الأفضل جعل العنوان الفرعي عنوانا أساسيًّا وتقييد العنوان الأساسي بعبارة "لمحة" أو ما يقوم مقامها فيكون "لمحة عن الفقه الحنفي بإفريقية...".

يقدم لنا نجم الدين الهنتاتي كتابه هذا في قسمين: القسم الأول ممهد بتأطير تاريخي ووصف للمخطوطات وترجمة لبعض الأعلام الحنفية الواردة في الكتاب كمحمد بن الحسن الشيباني وأسد بن الفرات ومعمر بن منصور الفقيه القيرواني صاحب كتاب "**تحليل النبيذ**" وسليمان بن عمران وهو أحد قضاة إفريقية كسحنون ولاه باجة ومحمد بن أبان الحميري، ثم يبين منهجه في التحقيق. أما القسم الثاني من الكتاب فخصصه للنص المحقق من كتاب الصلاة، الذي يتضمن: "باب المستحاضة" و"باب غسل الميت من الرجال والنساء" و"باب صلاة الكسوف" و"باب صلاة الاستسقاء" و"باب الصلاة بمكة وفي الكعبة" ثم كتاب "العتق والتدبير" والذي يتضمن: "باب عتق ذوي الأرحام" و"باب العتق عند الموت وعليه" و"العتق والوصية وعتق المسلم النصراني وعتق ولد الزنى" وباب لـ"وجوه من العتق" و"باب الشهادة في العتق" و"باب عتق الرقيق بين اثنين" و"باب كتاب العتق، إذا كان المملوك بين اثنين أو ثلاث[ة]" و"باب الشهادة في العبد بين اثنين إذا أعتقا[ه]" و"كتاب عتق ما في البطن" و"باب عتق ما في البطن بين اثنين" و"باب العتق بالمال ممّا يعتق قبل أداء المال، والشهادة في ذلك" و"كتاب العتق بمال ممّا لا يعتق حتىّ يؤدّي المال، والشهادة في ذلك" ثم "كتاب السرقة وقطع الطريق" والذي يتضمن: "باب قطع الطريق" و"باب الحد في السرقة" و"باب الإقرار" [ثم مسألة محمد بن الحسن الشيباني في (أصول الفقه)]. إضافة الى تقديم باللغة الإنجليزية لجوناثن بروكوب وصف فيها المخطوطات بأنها من أفضل الأعمال التي وصلتنا نظرا لاتصالها بصاحبها محمد بن الحسن ثم ذكر نبذة تاريخية عن المخطوطات المحققة وكذا أهميتها لدى المختصين بالتراث الإسلامي عامة.

هذا وقد كان محمد البهلي النيال عام 1963 من أول من لاحظ وجود هذه المخطوطات المنسوبة لأسد بن الفرات[2]. ثم وصفه جوزيف شاخت[3] بشكل تام في عام 1967، مشيراً إلى مضامينه ذات النزوع الحنفي. بيد أنه رغم ذلك، تم الخلط كثيرا بينها وبين الأسدية المسماة بالمختلطة أي المدونة التي نقحها سحنون بن سعيد معاصر أسد ومنافسه. ويلاحظ جوناثن بروكوب (ص.vii-v) في تقديمه لمخطوطة الهنتاتي أن: ميكلوس موراني[4] قد أشار منذ سنوات

[2] محمد البهلي النيال، **المكتبة الأثرية بالقيروان (عرض - دليل)** (تونس: منشورات دار الثقافة، 1963)، ص31.

[3] Joseph Schacht, "On Some Manuscripts in the Libraries of Kairouan and Tunis," *Arabica*, no. 14 (1967), p. 225-58.

[4] Miklos Muranyi, *Beiträge zur Geschichte der Ḥadīṯ und Rechtsgelehrsamkeit der Mālikiyya in Nordafrika bis zum 5. JH. D.H.: Bio-bibliographische Notizen aus der Moscheebibliothek von Qairawān* (Wiesbaden: Harrassowitz, 1997), p. 22-24, 42-43.

عديدة إلى أن أجزاء من مخطوطة أسد في القيروان لم تكن هي "الأسدية" المالكية المعروفة بل تعود لما نقله أسد من كتاب الأصل للشيباني، الذي نسخه أثناء رحلاته. ولا بد من تسجيل مجموعة من الملاحظات الأولية على الكتاب تفيد في هذا المقام:

أولاها: لا بد من شكر المجهود الذي قام به الهنتاتي، لدرجة أن مجرد إخراج المخطوطات الثلاث يعدُ بحق أحد الاكتشافات العظيمة في تاريخ الفقه الإسلامي عموما، لتقديمه دليلا قاطعا على أن هذه المخطوطات تمثل "الأسدية" الحنفية وليس كما كان يظن البعض أنها صورة عن "الأسدية" المالكية التي هي أصل مدونة سحنون. وبناء عليه فإن التحقيق الذي قام به الهنتاتي يُعد فَحصا منهجيا وتشكيكا معللا لبطلان نسبة هذه الأسدية المذكورة للمذهب المالكي.

ثانيا: ومما يحمد للمحقق أيضا محاولته التأكد والمقارنة بين مضامين المخطوطات الثلاث المدروسة وكتاب الأصل لمحمد بن الحسن الشيباني؛ وهو شيء ظاهر في هوامش الكتاب وإن كانت في نظري لها المزايا المذكورة إلا أنه أثقلتها إلى درجة جعلت القارئ يقرأ مرتين الكتاب؛ وهذه المسألة وإن كانت تقليدا مشرقيا في التحقيق إلا أنها غير محبذة؛ وفي نظري أن تعامل الهنتاتي مع المخطوطات الثلاث ليس أمرا جديدا بل سبق له أن قدم دراسة حولها في مقال مستقل بعنوان: "من الأسدية إلى المختلطة فالمدوّنة" ضمن **دراسات حضارية حول القيروان** سنة 2015. ففي رأيي، إذن، هذه الدراسة كان يمكن أن توسع أكثر بتقديم ملاحظات نقدية ومقارنة بينها وبين والأصل لمحمد بن الحسن.

ثالثا: يقطع نجم الدين الهنتاتي بانتقال أسد بن الفرات إلى المذهب الحنفي وهي مسألة حسمها بداية من تأطيره النظري للكتاب بتقسيمه المراحل التي مرت منها المذاهب والاتجاهات الفقهية بإفريقية (ص3) إلى ثلاثة مراحل: 1) مرحلة الازدواجية المذهبية، حيث يجمع الفقيه بين المذهبين في نفس الوقت؛ 2) مرحلة انتصار المذهب الحنفي بين بداية القرن 3/ 9، ومنتصفه؛ 3) مرحلة انتصار المذهب المالكي ابتداء من منتصف القرن 3/ 9. على أنه جعل رجحان الكفّة لفائدة المذهب الحنفي، لأسباب منها، مناصرة الأغالبة في القرن 3/ 9، له، ومن ثم سيطر المذهب الحنفي، على الأرجح، هناك على امتداد النصّف الأوّل من القرن. وقد مال جوناثن بروكوب أيضا في تقدمته للكتاب إلى الاعتبارات السياسية في سيطرت المذهب الحنفي؛ الشيء الذي لا نلمك له أي دليل عملي، سوى أن أسد بن الفرات كما كان عالما وراويا للمذهبين الحنفي والمالكي فقد كان أيضا أميرا على جيش لفتح صقلية بأمر من زيادة الله بن الأغلب (172/ 788 - 223/ 837). وهذا الدليل ليس قويا ولا يفيد انتقال أسد من المذهب المالكي إلى الحنفي. إذن لا دليل مادي عليه، إذ ترجيح كون ابن الفرات مزدوج المذهب أقرب، بل إن شئنا أن نقول إن أسد بن الفرات كان أول من تجسد فيه الفقه المقارن فأخذه عن مالك وعن ابن القاسم وعن محمد بن الحسن في

العراق جعل منه فقيها يأخذ من المذهبين معا، على القول بكونه مجتهدا مطلقا. وعلى ذلك فالميل إلى الاعتبار السياسي في بيان مذهب أسد يبقى بلا مبرر.

رابعا: أضاف نجم الدين الهنتاتي عنوانا لقطعة من المخطوط تحمل مسألة محمد بن الحسن الشيباني ووضع بين قوسين (في أصول الفقه) ومضمون المادة غير واضح تماما سوى ما فيه من إحالة على مسألة من مسائل القياس. وعلى فرض أن المخطوط هو جزء من رواية الأصل لمحمد بن الحسن، والأصل الذي بين أيدينا اليوم لا يحمل أي مسألة "في أصول الفقه" وإن كانت بعض القضايا كالاستحسان واردة في مواضع من المخطوط كما يوضحها جرد المصطلحات ذات الصلة بالأصول، ولكنها منثور في قضايا فقهية محضة. وعلى ذلك فوضع عنوان "في أصول الفقه" لا يضيف شيئا ولا يوضح معنىً.

وأخيرا، إننا من خلال العمل الذي قام به الهنتاني إزاء نص يقطع الطريق أمام جميع الاحتمالات حول حنفية مضامين المخطوطات الأسدية القيروانية. وعلاوة على ذلك نشكر جهد نجم الدين الهنتاتي في وضع فهرس للآيات القرآنية وفهرس للأحاديث وفهرس للآثار وفهرس للأعلام وفهرس للأماكن والبلدان وفهرس للكتب المذكورة وفهرس للمتفرقات وفهرس لوثائق الكتاب بأكمله؛ إلا أنه كان من المفيد لو كان هذا الجرد الفهرسي مقتصرا فقط على المخطوطات ومضامينها، حيث نجده فهرس المصطلحات وأسماء الأعلام الواردة في الدراسة وفي هوامش وتعليقات المحقق أيضا.